الفصل الرابع

آل كابونى

قامت الدنيا ولم تقعد عندما ألقى القبض على «كارلوس» الإرهابى فى أغسطس من العام ١٩٩٤، وعدَّ ذلك انتصارًا ما بعده انتصار للبوليس الفرنسى والسودانى والدولى وأجهزة المخابرات، ولكل من أسهم بالفعل أو القول أو حتى مجرد التخيل فى هذا الموضوع.. فالرجل أسطورة بحق من أساطير الإرهاب الدولى..

ولأن ذاكرة الناس كذاكرة الدجاج، لذا لزم التنويه بأن هذا الـ «كارلوس» يتواضع كثيرًا ويتضاءل أمام إمبراطور الجريمة فى تاريخ البشرية الحديثة؛ «آل كابونى».. الرجل الذى ذاع صيته فى العالم أجمع، فى زمن لم يعرف التلفزيون، ولا الأقمار الصناعية، ولا كل هاتيك الميديا الدعائية الجرارة.

آل كابونى، «ليجز ـ الأقدام»، «دياموند ـ الماس»، «المدفع الرشاش ـ ماك جرن»، «بجز ـ البراغيث ـ مورجان»، «الهولندى ـ شولتز».. إلخ.. تلك أسماء ذهبت بعيدًا، واشتطت وغالت فى العنف الأمريكى، الذى تميز عن كل ما عداه من عنف فردى عرفته البشرية، حتى إن هذا العنف صار أهم سمة ميزت الأمريكان فى العشرينيات من القرن العشرين.. ولعل أمواج العنف، التى تتسلل إلى شأن البشرية الآمنة هذه الأيام، ونحن على أبواب القرن الحادى والعشرين، ماهى إلا دفقات يسيرة، دفع بها الخضم المتلاطم من الدماء المراقة من أصحاب

الأرض الأصليين (الهنود الحمر)، والذى ظل يفور ويعتمل فى داخله حتى قذف بما فى جوفه، حممًا من سعير صبغت هذا الزمان الممتد إلينا بصبغتها.

كتب كثيرة وأعمال تلفزيونية وأفلام سينمائية، تناولت بمزيد من الإجلال والتوقير سيرة زعماء العنف وأساطينه، وبمزيد من التفخيم والتضخيم أعمالهم الإرهابية، وكأنها سجل بطولات حافل، فبدا الإرهابيون كأبطال ميامين يثيرون الإعجاب والانبهار بأكثر مايثيرون من اشمئزاز وتقزز.

ومن هؤلاء الأشرار الذين أثاروا خيال الكبار والصغار، يأتى آل كابونى الثانى فى القائمة الأمريكية بعد «جيسى جيمس»، فى حين يبدو الأول أكثر حظًّا فى الشهرة العالمية من الثانى (مواطنه)؛ فيتبوأ صدارة قائمة الإرهاب الدولى، فـ «جيمس» كان قد اكتسب شهرته ولمعانه من الحرب الأهلية بين الولايات وبعضها بعضًا، فى حين اكتسب آل كابونى شهرته من الحرب بين الحكومة والناس؛ من أجل تطويعهم لقانون تحريم بيع الخمور وتعاطيها الذى صدر آنذاك.

ومدى النجاح والشهرة اللذان حققهما كابونى فى عالم الإجرام، صعب تخيلهما الآن، حتى باستخدام مفردات عصرنا الحديث.. فلقد قدرت وزارة العدل حجم ميزانية المنظمة، التى كان يديرها، ولم يتعد عمره ٢٨ عامًا، ١٠٥ مليونًا من الدولارات فى عام ١٩٢٧، فكم بربك يعادل هذا المبلغ الآن؟؟!.. وقد بلغ من سطوته ونفوذه أنه كان يلكز العمدة «جوزيف كلينها» (وهو الذى اختاره وعينه فى هذا المنصب) فى بطنه أو يركله بقدمه، فيعرقله فيسقطه متدحرجًا فوق الدرج فى مبنى مجلس مدينة «سيسرو» بولاية «ألينوى» (وهى المدينة التى يتعمدها)، فى حين لا يحرك أيًا من رجال البوليس ساكنًا.. وفى عام ١٩٣٠ اختاره الدارسون فى معهد «ميدل» للصحافة بشيكاغو، ضمن أحد أبرع عشر شخصيات على مستوى العالم، متساويًا بذلك مع «ألبرت آينشتاين» و«هنرى فورد» و«المهاتما غاندى». وعنه بالذات صنع عديد من الأعمال الدرامية

متناولة تلك الشخصية البسيطة جداً والمثيرة جدًا، والأحادية البعد، والتى تبوأت قمة لا تدانيها قمة فى مجال العنف والجريمة.

ولد «آلفونس كابونى» فى حى «بروكلين» بمدينة نيويورك عام ١٨٩٩ كابن رابع بين تسعة من الأطفال لمهاجر إيطالى معدم، يعمل أحيانًا كنصاب فاشل.. الابن الأكبر ويدعى «فينكينزو»، هرب من البيت فى سن السادسة عشرة واحترف الإجرام فى «نبراسكا»، واشتهر باسم «ريتشارد هارت ذو المسدسين»، فى حين انضم آلفونسو فى صباه إلى عصابات الشوارع، وبدأ يمارس ألعاب القوى والفتوة، واكتسب اسم شهرته «الوجه ذو الندبة» من خلال عمله كبلطجى فى ملهى ليلى.. وبسبب ممارساته المبكرة للأعمال الإجرامية، صار مطلوبًا بشدة من قبل دوائر الأمن للتحقيق فى مصرع عدد من رجال الشرطة، فقرر مغادرة نيويورك، ومن أجل ذلك اتصل بالقاتل المحترف والأشهر آنذاك - «جونى توريو» - الذى تذكره على الفور، ذلك الشقى الصغير الذى تعارك معه يومًا ما فى أزقة وحوارى نيويورك، ودعاه للانضمام إلى عصابته فى «شيكاغو».

كانت شيكاغو آنذاك فى عز سطوتها وشهرتها.. مدينة كبيرة وضخمة وسط البرارى، تتقاطع فيها كل الطرق وينزل بها كل المسافرين. وهى المحطة الأخيرة لكل طريد قبل أن تبتلعه الصحراء.. وصفها «لنكولن ستيفنز» عام ١٩٠٤ فقال: «الأولى فى العنف، والأكثر قذارة، والأعلى صخبًا وضجيجًا، ليس بها قانون، وليست ودودة على الإطلاق.. رائحة القتل فيها تختلط برائحة الدخان الأزرق، فتكسبها تميزًا كريهًا.. إنها متعبة للأعصاب، مرهقة للأنفس، فهى الأقسى بين المدن جميعًا».

وصل آل كابونى إلى شيكاغو عام ١٩١٩؛ ليجد أن توريو يعمل لحساب عجوز ثرى من زعماء المافيا، هو «جيم كالوسيمو» الشهير بـ «دياموند - ألماس» نسبة إلى ولعه وتعلقه الشديد بهذا المعدن النفيس، وكان الأخير يدير لحسابه كل الملاهى الليلية فى المدينة تقريبًا، إضافة إلى مجموعة أخرى من الأعمال المتنوعة. وكان توريو الساعد الأيمن والناصح الأمين، ورئيس الحرس الخاص

لـ «كولوسيمو»، وفوق ذلك كان ابن عم زوجته، وكباقى الجيش الذى عمل مع الأخير، أقسم توريو على الولاء لزعيمه وفدائه بروحه.

وما إن استقر المقام بـ «آل كابونى» فى شيكاغو، حتى استقدم باقى عائلته الوثيقة الصلة به، من نيويورك، أمه وزوجته ذات الأصل الأيرلندى، وابنه، وأربعة من إخوته الذكور، وأخت واحدة. وكانت السلطات قد بدأت تطبق قانون حظر تصنيع الخمور وبيعها بصرامة، وعلى نطاق واسع ألحق الكساد بملاهى كولوسيمو، الذى عقد اجتماعًا حضرته زوجته الثانية، المغنية «ديل ونتر» وزمرة من رجاله المخلصين ومجموعة من عملائه السريين من السياسيين وموظفى الحكومة. وحاول توريو أن يقنع زعيمه باستغلال القانون لصالحه لا ضده، وذلك بالاتجار فى المشروبات الكحولية المغشوشة، فرفض الثرى العجوز تلك الفكرة بشدة.

وفى ١١ مايو ١٩٢٠، تواعد توريو مع كولوسيمو على أن يلقاه فى أحد مطاعمه؛ كى يوقع له على إذن توريد للخمور. وفى الموعد المحدد وبينما العجوز ينتظر، خرج آل كابونى من كابينة التلفون المواجهة للمطعم الخالى فى ذلك الوقت، وتقدم ببطء نحو الرجل المنتظر، وفاجأه برصاصات غادرة هشمت رأسه تمامًا، ثم أخذ حافظة نقوده حتى تبدو الجريمة بغرض السرقة، وهرع إلى توريو المنتظر على أحر من الجمر؛ فهنأه بنجاح العملية.. وجعل الاثنان ينتحبان، ويذرفان الدمع السخين، ويتوعدان بالانتقام المريع من قاتل زعيمهما، وذلك عندما وصلت إليهما أنباء الجريمة رسميًّـا!

وهكذا آلت إمبراطورية الجريمة التى خلفها «كولوسيمو» إلى «توريو» و«كابونى»، فأضافا إليها نشاط بيع الخمور المغشوشة وتوزيعها لحساب الغير، فتجمعت لديهما أرباح وفيرة. وصار الاثنان يشكلان محورًا نشيطًا لحساب المافيا فى شيكاغو، لا يناوئهما إلا الأيرلندى «تشارلز ديون أو بانيون» الشهير بالعميد؛

لأنه كان أحد الزعماء المرموقين فى المافيا ساعدته فى ذلك أصوله الإنجليزية، وملامحه الطفولية الباسمة، وصوته الرخيم (فقد كان عضواً فى جوقة المرتلين بالكنيسة، وكان مخططًا له أن يصير راهبًا).. وتحول أوبانيون إلى عالم الجريمة جاء بالصدفة؛ فقد كان يعمل نهارًا فى صحيفة «Hirald - Examiner» (كان رئيس تحريرها هو «ويليام راندولف هارت») وفى المساء كان يعمل مغنيًا بأحد الملاهى الليلية الذى كانت ترتاده إحدى العصابات. ونجحت تلك العصابة فى استمالته إليها، وفى وقت قصير انتقل من صفوف الهواة إلى المحترفين، فعتاة المجرمين، ثم زعيمًا لهذا التشكيل من عصابات المافيا. وصار له أسلوبه الإجرامى المميز، والذى لايخلو من طرافة (لعل سببها كانت جذوره الدينية) فهو يرفض أن تمارس فى منطقة نفوذه من المدينة أى نوع من أنواع البغاء (بعكس ما كان يفعله منافسوه) كذلك كان لايبيع الخمور المغشوشة، واقتصرت معامله للتقطير على إنتاج أجود الأنواع من كل شىء. وكان يدير أعماله من محله الكبير لبيع الزهور فى وسط شيكاغو، والذى كان يمد أولاد الذوات بزهور المآتم والأفراح.

كان أوبانيون نفسه يعترض على أسلوب أنداده الطليان المسرف فى القسوة والعنف، وكثيرًا ما كان يضحك ساخرًا من أفاعيلهم، حتى كان عام ١٩٢٤ فكانت ضحكته الأخيرة. فى هذا العام علم أن البوليس يدبر خطة للهجوم على أحد مصانعه للبيرة؛ مما يعنى تدمير هذا المصنع بالكامل والقبض على عماله ومصادرة ما فيه، وقد يسعون للقبض عليه هو أيضًا.. فما كان منه إلا أن باع نصف أسهمه إلى جونى توريو، ولم يخبره بما ينتويه البوليس حياله.. وما هى إلا أيام قلائل حتى وقعت الواقعة، وحدثت الغارة، واستطاع أوبانيون أن يخرج منها كالشعرة من العجين، وحمل الشريك الجديد جل المسئولية.. وأصيب توريو بهلع شديد؛ فقد كان حريصًا أبدًا أن يبقى سجله لدى البوليس نظيفًا، واليوم تراه صار من أصحاب السوابق، فقرر الانتقام.

في ١٠ نوفمبر ١٩٢٤ دخل ثلاثة رجال محل زهور أوبانيون، يشترون إكليلاً يصلح لجنازة، ولم يسألهم ذو الوجه الطفولي؛ أى جنازة تلك؟. ولم يدرك أن هؤلاء الرجال المحترمين هم: «ألبرتو انسيملى» و«جون سكاليز» و«فرانك ييل»، أعوان توريو المقربين وقتلته المأجورين.. وتقدم ييل لدفع الحساب إلى صاحب المحل، ولكنه بدلاً من ذلك فاجأه بحركة مباغتة، فأسقطه أرضًا وداس على رقبته، وقبل أن يفيق الرجل من المفاجأة كان الغريمان الآخران قد أمطراه بوابل من الرصاص.

كانت جنازة أوبانيون هى أضخم جنازة شهدتها شيكاغو فى تاريخها كله، سار فيها الأثرياء والوجهاء وعلية القوم وزعماء المافيا والقتلة والمجرمون، وعلى اختلاف انتماءاتهم.. الكل جاء يبدى احترامه وتقديره للعميد المتوفى، الذى كان سيبتهج كثيرًا لو رأى هذه الحشود التى خرجت تودعه الوداع الأخير.. كان هناك عشرة آلاف تزاحموا داخل سور المقابر، فى حين كان هناك أكثر من ذلك انتظموا فى موكب، طوله حوالى ميلين، تتقدمهم ثلاث فرق موسيقية، تعزف ألحانًا جنائزية عسكرية، هذا غير رجال البوليس الذين انتشروا بطول الموكب.. وقدرت أثمان باقات الزهور التى وضعت على قبره بـ ٥٠ ألف دولار بأثمان وقتها.

جنازة أوبانيون كانت الأولى فى سلسلة جنازات، شهدتها الأعوام القليلة التى أعقبتها؛ فلقد بدأ توريو وآل كابونى حربًا لم يستطيعا التحكم فيها أو وضع حدٍّ لها. وقبل أن تنصرم حقبة العشرينيات من هذا القرن (العشرين)، كان هناك ما يزيد على ألف قتيل قد لقوا مصرعهم فى الشوارع، ضمن سلسلة من نوبات العنف الهستيرى، والانتقام والغضب الخانق، وكان أول من تعرض لتلك الأعمال الثأرية هو توريو نفسه.

اثنان من المخلصين لـ «أوبانيون» (الراحل)، هما: «هيمى وايس» و«جورج

مورجان» الشهير بـ «BUGS البراغيث»، كمنا لتوريو عند خروجه من بيته، وأطلقوا عليه النيران، وتركوه بين الحياة والموت.. ولحسن حظه.. لم تكن إصابته فى مقتل فعاش، ولكنه قبض عليه بعد فترة قصيرة، بعد أن حفل سجله بجرائم غش البيرة، وحكم عليه بالسجن تسعة أشهر.

خلال تلك الفترة القصيرة، خلا المناخ الإجرامى ل «آل كابونى»؛ فقد سقط زعيم الجناح المنافس (أوبانيون) وسقط الشريك (توريو).. وما إن خرج توريو من سجنه، حتى تواترت إليه الأنباء بأن تلميذه السابق لم يشمله فى خططه، ولم يعد له رغبة به، فاعتزل الإجرام، وهو لم يتعد بعد الثالثة والأربعين، وغادر شيكاغو إلى فلوريدا، على حين وايس ومورجان فى أثره، فلما شعر بذلك طار إلى نابولى، وظل هناك حتى هدأت الأمور؛ فعاد إلى نيويورك عام ١٩٢٨ وعاد أيضًا إلى ممارسة الإجرام، ولكن من نوع النصب والاحتيال؛ لحساب رجل المافيا فى نيويورك «ماير لانسكى»، حتى قبض عليه فى عام ١٩٣٩ بتهمة التهرب الضريبى، وحكم عليه بالسجن لمدة عامين.. ثم مات توريو بعد ذلك عجوزًا فى عام ١٩٥٥ إثر أزمة قلبية.

عندما غادر توريو شيكاغو عام ١٩٢٥، كان يحمل معه شيكًا بمبلغ ٥٠ مليونًا من الدولارات، ولكنه رغم ذلك خلف وراءه إمبراطورية واسعة من الملاهى الليلية وأندية القمار والبغاء وأعمالا واسعة، شملت الاتجار فى الخمور المغشوشة، والابتزاز، وفرض الأتاوى بالتخويف والترهيب.. كل هذه الإمبراطورية سقطت كالتفاحة الناضجة فى حجر آل كابونى، يأمر ويتحكم فيها كيف يشاء. وسرعان ما ذاعت شهرته، وأطبقت فى الآفاق، وصار «لورد» المدينة الأوحد بلا منازع؛ حتى توارى خلفه كل زعماء الإجرام السابقين واللاحقين؛ فقد كان لديه ميل غريزى لأن يصير نجمًا ذائع الصيت، ساعده على ذلك بصيرة سياسية نافذة وذكاء اجتماعى حاد. أما أقرانه وزملاء مهنته فكانوا يكرهون الشهرة والظهور على الملأ، وكان همهم الأعظم هو الإثراء السريع، ثم مغادرة المدينة، والعيش فى سلام وهدوء فى أى مكان آخر.

وهكذا.. ومن منطلق حب الظهور، أخذ كابونى يدير إمبراطوريته، التى كانت تدر عليه أرباحًا سنوية مقدارها ٥ ملايين من الدولارات من فندق «هوثورن» الفخم.. غير أن هذه العلانية المبالغ فيها كادت تكلفه حياته.. فالمجرمان «مورجان ـ البراغيث» و«هيمى وايس» اللذان فشلا فى اغتيال «توريو»، قررا اغتيال خليفته.. وما كان منهما إلا أن قادا رتلاً من السيارات مر من أمام الفندق الذى يقيم فيه كابونى، ووجهوا نيرانهم الكثيفة ناحية حجرته المطلة على الشارع، وظلوا يقصفون الفندق قصفًا عنيفًا قرابة ساعة؛ فقتلت عروس كابونى الثالثة، أما هو نفسه فقد أنقذ بأعجوبة!

وفى أول جولة انتقامية، طارت رقبة وايس فى الشارع، أما مورجان فقد أبدى مهارة فى التخفى والمراوغة منحته مهلة عامين زيادة على شريكه، حتى طارت رقبته هو الآخر فى مذبحة «سانت فالنتينو» الشهيرة.. وامتدت تجارة الخمور المغشوشة التى كان كابونى يديرها؛ لتشمل الساحل الشرقى وكندا، ولم يعد هناك من يكدر صفوه فى المدينة أو يعوق أنشطته ـ إلى حد ما ـ إلا عائلة «جينا»، وهى عصابة يتزعمها أربعة من الأخوة من أصول صقلية، كانوا هم الممول الرئيسى للخمور المغشوشة لـ «كابونى».. وكانت خمورهم رخيصة ومتعفنة إلى درجة السمية، فمات عدد كبير ممن كانوا يتعاطونها، والآخرون كانوا يصابون بالعمى المفاجئ أو المتأخر. وكان سعر التكلفة ٤٠ سنتًا للجالون (٤ لترات تقريبًا)، ويباع لـ «كابونى» بدولارين فيبيعه بدوره للمستهلك بـ ٦ دولارات.

عائلة «جينا» هذه بدأت تنافسه النفوذ لدى الإخوة الطليان من زعماء المافيا الكبار، كما أنهم بدأوا يوردون بضاعتهم لتجار آخرين، هذا بالإضافة إلى السمعة السيئة التى لازمت صناعتهم؛ فقرر كابونى تصفيتهم على مهل، ولكنهم كانوا أقل عنادًا مما تخيل، إذ ما كاد بعضهم يسقط، حتى فر الباقون إلى صقلية أو ولايات أمريكية أخرى.

«جوزيف أسبوسيتو» هو ضحية أخرى من ضحايا هذه الحرب، فهو سياسى محتال، اشتهر باسم «جو الماسى»؛ نظرًا لأنه كان يرصع حزامه بماسات يبلغ ثمنها ٥٠ ألف دولار. وكان هو عضو اللجنة العامة الحاكمة فى شيكاغو، المنبثقة عن تقسيمات القرن التاسع عشر الإدارية، وكان يتحكم مباشرة فى البوليس واتحادات العمال، وعدد كبير من الوظائف السياسية. أما الأهم من ذلك.. فهو أنه كان يمتلك ويدير عددًا من معامل التقطير، التى كانت تبيع لـ «آل كابونى» الخمور، وقد وجد هذا الرجل مقتولاً فى الشارع عام ١٩٢٨ إبّان الحرب بين كابونى وعائلة جينا، ولم يعرف من قتله!

كان من بين من يمدون كابونى أيضًا بالخمور المغشوشة، ابن ضابط كبير فى البوليس، ويدعى «روجر توهى».. ولم يكن الأول سعيدًا بتعامله معه، وكان يريد أن يزيحه من طريقه، ويسيطر على أعماله.. وكبداية اختطف شريكه «ماتكيلب»، وطالب بفدية ٥٠ ألف دولار، وعندما دفعها توهى، لم يتورع كابونى عن قتله! وعلى الرغم من ذلك لم يلب توهى مطالب الأخير، فوشى به كابونى للبوليس فقبض عليه، وحكم عليه بالسجن ١٩٩ عامًا بتوصية من آل كابونى. وبعد تسع سنوات استطاع توهى الهرب من السجن، كما استطاع أن يقدم للمحكمة دليل براءته، فأطلقوا سراحه رسميًا وبعد يومين من تمتعه بحريته، قتله مجهول فى أحد شوارع شيكاغو.

«فرانك ييل» أحد أعوان توريو المخلصين، وأحد الذين قتلوا العميد «أوبانيون»، كان يرى أن كابونى قد خدع توريو واستبعده بما لايليق بتاريخه الحافل كأستاذ لهم جميعًا؛ لذا فقد اكتفى «ييل» بالنصب على كابونى فى بعض صفقات المشروبات الكحولية، وحصل على ثمنها، وطار إلى نيويورك. وهناك فى عام ١٩٢٧ دعاه أحد رجال الأعمال إلى موعد فى بروكلين، وعندما ذهب ييل إلى موعده، وجد عاصفة من الرصاص فى استقباله، أطلقها أحد أعوان آل كابونى.

لكن كابونى لم يكن تواقًا للانتقام من أحد قدر توقه للانتقام من «مورجان ـ

البراغيث» مساعد أوبانيون الأمين، والذى حاول قتل توريو انتقامًا لزعيمه، ثم حاول قتل كابونى نفسه فقتل عروسه.. من أجل ذلك استأجر صاحبنا قاتلاً محترفًا، له سمعة مدوية لما عرف عنه بأنه الأكثر فتكًا على الإطلاق، وهو «جاك ماك جرن»، وشهرته «المدفع الرشاش» أما اسمه الحقيقى فهو «جيمس فينكنزو دى مورا».

ولد ماك جرن فى الحى الإيطالى فى شيكاغو عام ١٩٠٤، ونشأ كملاكم محترف، أما والده فكان يعمل فى أحد معامل التقطير التابعة لعائلة «جينا»، وعندما قتله أحد الحراس الخصوصيين للعائلة، انضم الابن إلى قافلة كابونى كقاتل محترف يعمل لديه بالقطعة، وأثبت وحشية ودموية وعنفًا بالغين. وكانت علامته المسجلة؛ قرصا من النيكل يغرس فى كف ضحاياه. وقد بلغ عدد تلك العلامات حتى عام ١٩٢٩ خمسة عشر علامة، وكان أجره عن كل ضحية عاليًا، فجمع ثروة اشترى بها عددًا من الملاهى الليلية، وتزوج واحدة من المغنيات لديه. وقد حدث أن رفض الكوميديان الشهير «جو لويس» تقديم عرض فى أحد ملاهيه؛ نظرًا لسمعته السيئة، فما كان من ماك جرن إلا أن ضربه ضربًا مبرحًا أمام المتفرجين، وقطع له أحباله الصوتية.

وفى ١٤ فبراير، يوم سانت فالنتينو (عيد الحب) من عام ١٩٢٩ تلقى ماك جرن الأمر بتصفية مورجان، عدو كابونى اللدود، والذى بدأ يتحدث عنه باسم «آلفونس الوغد» (آل كابونى). فى ذلك اليوم كان سبعة من أفراد عصابة مورجان، يتوقعون وصول شحنة من المشروبات الكحولية إلى الكاراج الواقع فى ٢١٢٢ شارع «نورث كلارك».. كان السبعة ينتظرون حين اقتحم الكاراج ثلاثة من رجال البوليس، يحملون فى أيديهم المدافع الرشاشة، وطلبوا من هؤلاء الرجال أن يصطفوا ووجوههم للحائط، وما إن فعلوا ذلك حتى فتح البوليس عليهم النيران فقتلوا جميعًا.. ولم يكن رجال البوليس أولئك إلا ماك جرن، واثنين من أعوان كابونى!. ولم يكن مورجان من بين القتلى، وهو الذى ارتعدت فرائصه عندما عاد، ورأى هذا البحر من الدماء تطفو فيه جثث القتلى..

وصدرت الصحف فى اليوم التالى فى كل الولايات المتحدة تحمل عنوان: «مذبحة يوم سانت فالنتينو».

هذه المذبحة البشعة أثارت لغطًا واسعًا وغضبًا شعبيـًّـا عارمًا، وباتت هناك رغبة ملحة فى القضاء على أسباب العنف فى المدينة؛ فزادت الضغوط على السياسيين ورجال البوليس، بمن فيهم من المتورطين فى تلك الأعمال، للتدخل بحزم لوضع حد لتلك المجازر المنصوبة فى شوارع شيكاغو.. وإزاء تلك الظروف، لم يعد ماك جرن «المدفع الرشاش» مرغوبًا من كابونى؛ بسبب ما عرف عنه من دموية مفرطة.. فاعتزل الأول القتل، وعاش مسالمًا فى المدينة يدير ملاهيه.. ولكنه على أية حال كان مطلوبا للثأر من قبل الكثيرين؛ حتى كان يوم ١٤ فبراير ١٩٣٦ وبعد سبع سنوات من مذبحة عيد الحب، وبينما كان يسير فى شارع هادئ ليلاً، اقترب منه رجلان مسلحان، وفجرا فيه قنبلة يدوية مزقته إلى أشلاء.

وعندما وصل البوليس إلى مسرح الحادث، وجد عمله من النيكل مثبتة فى كفه (علامته المسجلة) المقطوعة، وكذلك وجد قلبه منزوعًا من جسده، وبه سهم كيوبيد، إشارة إلى عيـد الحـب. كـان مورجـان «البراغـيث» (الحـارس المخلص لـ «أوبانيون») أحد هذين القاتلين، وهو الذى فقد خيرة رجاله فى مذبحة عيد الحب المشئومة.. وبعد انتقامه من ماك جرن اختفى عن الأنظار، وعاد إلى مسقط رأسه فى «أوهايو» حيث اعتقل فى حادثة سطو مسلح على أحد البنوك، ومات فى سجن «ليفن وورث» عام ١٩٥٧، وبالتالى فقد كان الأطول عمرًا بين كل أقرانه من مجرمى شيكاغو، حتى إنه عاش بعد موت أشهرهم (كابونى) عشر سنوات أخرى.. أما بعد أن غادر مورجـان شيكـاغـو إلـى أوهـايو، فقد دانت لـ «آل كابونى» كل العصابات، وكل فروع المافيا، وكل الأنشطة الإجرامية فى المدينة بلا منازع على الإطلاق.. لكن انتصاره هذا كان قصير العمر.

فما فشل فى تحقيقه البوليس طيلة عقد كامل من الزمان، فعله مأمورو الضرائب فى أسابيع.. وهذا إن دل فإنما يدل على مدى الوهن والشلل الذى أصاب الحكومة الفيدرالية آنذاك (أوائل الثلاثينيات) حيال الجريمة المنظمة.. فمن خلال ٢ مليون دليل، جمعها البوليس ضد كابونى فى جرائم أهونها القتل العمد.. لم تجد السلطات أمامها أقوى ولا أضمن من قضية التهرب الضريبى! فهى قضية واضحة ومحددة، ولن تستغرق من القضاة والمحلفين أكثر من جلستين اثنتين.

وبالفعل قدم للمحاكمة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٣١، وفى جلسة واحدة سريعة، وبعد أن ثبت للمحلفين أنه مذنب.. حُكِمَ عليه بغرامة ٥٠ ألف دولار و ٣٠ ألف دولار أخرى كمصاريف إدارية وأتعاب.. وعلى الرغم من أن هذا المبلغ قطرة فى بحر مما يملكه كابونى، إلا أن ما قصم ظهره هو أن الحكم اشتمل أيضًا على السجن لمدة ١١ عامًا.

«الكاتراز».. كلمة إسبانية تعنى القلعة الحصينة أو القصر العالى الأسوار.. وتعنى فى التاريخ الأمريكى دليلاً على الوحشية والبربرية وإذلال الإنسان لأخيه الإنسان.. وفى الجغرافيا؛ تعنى جزيرة صغيرة جدًا فى خليج سان فرانسيسكو العميق جدًا، والمتلاطم الأمواج جدًا، والمليء بالدوامات القاتلة، والوحوش البحرية الفتاكة والجائعة أبدًا.. ولا سبيل للوصول لهذه الكاتراز ولا للخروج منها إلا فى سفينة كبيرة وبواسطة ملاحين أشداء، وذوى خبرة.. فيما عد ذلك فالموت هو الذى يحيط بالجزيرة ذات الحواف الحجرية المسنونة.

فوق هذه الجزيرة وفى أوائل هذا القرن، بنى سجن كبير باتساع مساحتها الصغيرة، فعدّ السجن الأكثر تحصينًا فى العالم، والأكثر هولاً وبشاعة.. (استطاعت عصابة منظمة من الهنود الحمر، وباستخدام التكنولوجيا الحديثة أن تغزو تلك الجزيرة، وتسيطر على السجن، الذى تآكلت جدرانه بفعل ملوحة البحر، وأعلنوا انفصالهم عن الحكومة الفيدرالية عام ١٩٧٠، ولكن السلطات

الامريكية أجلتهم عنها بالقوة بعد عام واحد). . وإلى هذا السجن نقل المجرم الأخطر فى تاريخ العالم الحديث، تحت احتياطات أمنية فائقة الصرامة والشدة.

فى «الكاترازا» يقبع عتاة المجرمين، ولكنهم جميعًا دهشوا عندما علموا بوصول الأعتى، الذى كانوا يرفعون لذكره قبعاتهم إجلالاً. . ووضع كابونى مثله مثل الآخرين فى زنزانة منفردة، فلم يكن رفاقه يلتقونه إلا وقت الأكل فى الكافيتيريا، التى صممت هى الأخرى لتكون قطعة من العذاب، فهى شبه مظلمة دومًا، ويتدلى من سقفها عدد من العلب التى تطلق غازات مسيلة للدموع طوال فترة تناول الطعام، والزيارات كانت محدودة جدًّا، وبإذن من مكتوب من أعلى السلطات الأمنية، ولمدة ٢٠ دقيقة فقط، وتتم المحادثات مع المسجونين، من خلال فتحات عليها قضبان حديدية، ومساحة كل فتحة ١٠ سم × ٣٠ سم.

وفى السجن أدمن كابونى الكوكايين، وفى فحص طبى شامل على جميع المسجونين، اكتشف الأطباء وجود ثقب فى حاجزه الأنفى من أثر الشم. . لكن ذلك كان أهون ما اكتشفوه؛ إذ وجدوه أيضًا مصابًا بمرض «الزهرى ـ السفيليس» (مرض تناسلى ينتقل أساسًا عن طريقة الممارسات الجنسية) بل وفى مرحلة متأخرة منه. . وكان قد مر على آل كابونى سبع سنوات فى السجن، حين انتشر الزهرى فى جسده، ووصل إلى مخه فأثر على شخصيته وتصرفاته، ثم تركه مخبولاً فنقل إلى مصحة عقلية قضى فيها عدة أشهر، ثم أطلق سراحه لظروف مرضه، وتسلمه أهله فى فلوريدا، الذين كان يعولهم جميعًا آنذاك، أخوه الأكبر، الذى بدأ فى ممارسة نشاط إجرامى مكثف هناك، مستفيدًا من شهرة شقيقه ـ العملاق المريض ـ الذائعة.

واشتد المرض على آل كابونى، فاشتد خبله وجنونه؛ مما اضطر أهله لربطه وتقييده بالحبال إلى السرير وإغلاق الباب دونه، وانقطعت عنه زيارات رفاقه من جيل المافيوزو القديم، وكذلك تلاميذه من المافيوزو الجدد، الذين كانوا إلى عهد

قريب يتلهفون على رؤيته والاستماع إليه كعلم من أعلام عصابتهم ودرّة تاجه على الإطلاق، إن جاز هذا التعبير.

ومات آل كابونى وحيدًا فى حجرته المغلقة عام ١٩٤٧ عن عمر يناهز الثمانية والأربعين، قضى جلها فى الإجرام العنيف والإرهاب الدموى.

حياة آل كابونى إذًا ليست قصة مجرم متميز، ولكنها قصة المجتمع الأمريكى والمناخ والثقافة الأمريكية التى أفرزت مثل هذا النتاج السيئ.. إنها قصة العدل الأمريكى المفقود على كل المستويات.. إنها نقطة تقاطع الحلم الممتد مع عجز الواقع، فصارت خير مثال للجانب المظلم فى حياة البشرية.

فى السجن التقاه رجل دين ذهب إلى هناك فى مهمة وعظية، وقال له: «ألا تشعر بالحاجة لأن تصلى ؟؟» فرد آل كابونى: «ومن منا لا يحتاج لملاذ؟!».

* * *